هذه النسخة مخصصة لشركة هائل سعيد أنعم

www.edara.com

خلاصات
كتب المدير و رجل الأعمال

العدد 724

رئيس التحرير: نسيم الصمادي

editor@edara.com

ديسمبر / كانون أول 2020 - جماد الأول 1442

السنة 28 - العدد 34

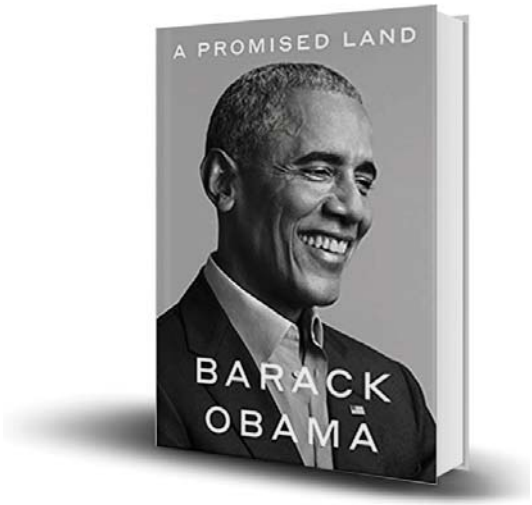

أرضٌ موعودةٌ

دروس في السياسة والقيادة

تأليف: باراك أوباما

قلَّما سنحت لنا الفرصة لنزيح الستار عن الخبايا الكامنة خلف كواليس المسرح السياسي. تنقل لنا هذه الخلاصة صورة دقيقة لتجربة الرئيس الأمريكي الأسبق "باراك أوباما" في العمل العام وتوليه أعلى منصب في الولايات المتحدة وحتى انتهاء فترة ولايته وتسليم السلطة إلى خليفته المثير للجدل "دونالد ترامب"، لنكشف النقاب عمَّا واجهه "أوباما" من تحديات، وما اتخذه وفريقه من قرارات، بكل ما انطوت عليه من دروس وعبر، ونجاحات وإخفاقات. "أرض موعودة" رؤية إنسانية وسياسية ذات جذور أفريقية سمراء حلَّقت في سماء الحلم فارتقى صاحبها أعلى الدرجات وأصبح قائد أكبر دولة في العالم ليسرد لنا أهم محطات هذه الرحلة المُفعمة بالأمل وتجاوز المستحيل.

الرهان

جاء "باراك أوباما" إلى الولايات المتحدة حاملاً إرثاً غير مألوف. فقد انحدر من أصول أفريقية، من أبٍ مغترب في "كينيا"، وأم من ولاية "كنساس" أمضت جلّ حياتها في "أندونيسيا"، وتمتد جذوره إلى أجداد من الغرب الأوسط كانوا يقطنون "هاواي". أدرك منذ نعومة أظفاره الأطياف المختلفة التي شكلت السلالة التي انحدر منها - من حيث العرق، والجنسية، وحتى الطبقة الاجتماعية. كان يؤمن بالنموذج

الأمريكي المثالي باعتبارها "أرض الحرية"، إلا أنه فتح عينيه على واقع مختلف في "أندونيسيا"، حيث كانوا ينظرون إلى "أمريكا" نظرة مغايرة، كانوا يرونها دولة استعمارية مستغِلَّة. فلم يجد له ملاذاً من تلك الصدمة إلا وسط كتبه لينأى بنفسه عن هذا الصراع والتناقض بين قناعاته والواقع المحيط به. في طور طفولته، لم يكن يعلم بما ستعود عليه كل هذه المعرفة التي كان يكتسبها يوماً بعد يوم، لكنه كان موقناً أن مكاسبها ستتجلى يوماً ما، عندما يكتشف شغفه، ويستبين حلمه، ويلمس تطلعاته، وقد باتت حقيقة ملموسة بين يديه.

لقد ساعد هذا الشغف الفكري "باراك أوباما" أن يصل إلى المرحلة الجامعية حاملاً زخماً هائلاً من المعرفة السياسية، وسلسلة من الرؤى شبه المكتملة عن العالم بأسره. كان على وشك تكوين صورة للعالم في ذهنه، تلك الصورة التي أطلقت الشرارة الأولى لولعه بالعمل السياسي. تأثر بالطلاب الذين أتوا من كل حدبٍ وصوب يحملون في أذهانهم خلفيات متباينة، وترْسخ في عقولهم آراء وقيم تغذت على تلك الصراعات المشتعلة في مجتمعاتهم. كما ألهمه شباب القادة والهيئات العمالية وحركات الحقوق المدنية.

بعد فترة وجيزة، انتقل "أوباما" إلى "شيكاغو" وانخرط في المجتمع ينظم ويحشد مختلف أطياف الشعب لحل المشكلات المحلية. لم يحقق إنجازات كبيرة، وكذلك لم يترك بصمة واضحة في هذه المدينة، بيد أنها تركت فيه أثراً عظيماً؛ فقد ساعده العمل الميداني على اكتساب مهارة الإنصات إلى البشر والتفاعل معهم، بدلاً من الاكتفاء بالتنظير حول احتياجاتهم كما يفعل الكثير من السّاسة. تجرَّع "أوباما" مرارة الفشل، وخِزي الرفض، وذل الإهانة، وتعلم أن يظل صلباً متماسكاً مترفعاً عن صغائر الأمور.

كانت هناك قيود لا تزال تحدّ من العمل المجتمعي وتقلِّص إنجازاته. لذلك استشعر "أوباما" أنه تعوزه السلطة المناسبة لإحداث التغيير المأمول، والتي لا سبيل لنيلها إلا بتقلُّد منصب أعلى. وقد بعثه على هذا الإدراك "هارولد واشنطن".

قبل انتقال "أوباما" إلى "شيكاغو" بعامين، كان قد انتخب مواطنوها "هارولد واشنطن" ليصبح أول عمدة أسود للمدينة، بعد أن كانت ثلة من النشطاء ورجال الأعمال السود يعانون من غياب العدل والمساواة، فاتحدوا وحفزوا المواطنين المحرومين من حقهم في التصويت كي يسعوا لتسجيل أسمائهم، ومن ثَمَّ الإدلاء بأصواتهم.

ولكن في أعقاب فوز "واشنطن"، انقسم مجلس المدينة إلى فصائل مختلفة، أغلبها يسعى إلى مناهضة أيِّ تغيير يحاول "واشنطن" فرضه. ولم يمضِ وقت طويل حتى توُفِيَ "واشنطن" إثر أزمة قلبية، وعاد كل شيء إلى سابق عهده. وبرغم ذلك، لمس "أوباما" التأثير الذي تركه "واشنطن" على المدينة، والأمل الذي يحدو مواطنيها في إمكانية إحداث التغيير. وهو ما أوحى لـ "أوباما" بفكرة السعي إلى منصب حكومي.

تعلم "أوباما" في الحملة الانتخابية الأولى التي خاضها ليكون نائباً عن "سبرينج فيلد" -عاصمة ولاية "إلينوي"- أن يحترم آليات السياسة، ويقدس العمل اليومي الدؤوب، ويهتم بالتفاصيل، إن كان حقاً يسعى للفوز.

ما أن فاز "أوباما" في الانتخابات حتى عرف أن إحداث التغيير أمرٌ عسير. كان رجال السياسة في "سبرينج فيلد" ينظرون إلى عملهم كأنه سوق لتبادل المصالح، وليس هذا بغريب، فهم يعرفون أن ناخبيهم لا يكترثون كثيراً بما يفعلوه. لكن "أوباما" كان يؤمن أن السياسة يمكن أن تتجاوز حدود ما يظنه السواد الأعظم من جموع الشعب.

بعد إخفاق حملته الانتخابيه لدخول الكونجرس، تراجع "أوباما" لعامين، وابتعد عن ميدان السياسة وفكر جدياً في الانسحاب من السباق. لكنه لم يستطع التخلي عن حلمه الأزلي في صنع سياسة أمريكية جديدة تجسِّر كل تلك الانقسامات العرقية والسياسية والاقتصادية. لذلك، كان "أوباما" بحاجة إلى العمل على مستوى قاعدة عريضة. كان بحاجة إلى مخاطبة أكبر قاعدة ممكنة من المواطنين كي يحرز أيَّ تقدم في سبيل التغيير. كان عليه استئناف سعيه ليحظى بمقعد في "الكونجرس".

بعد خسارته المعركة الانتخابية أمام "بوبي راش"، أدرك "أوباما" الجوانب التي كان عليه أن يعمل على تحسينها في حملته الأولى، لقد كان صلباً مسهباً في حديثه، لا يجيد صياغة العبارات المنمقة والشعارات الرنانة التي يحتاجها الناخبون لفهم حديثه واستيعاب أهدافه. كانت حملته بحاجة إلى المزيد من التركيز على التواصل مع الناخبين على المستوى الإنساني أكثر من الاهتمام بالسياسات والأوراق.

كثيراً ما قيل لـ "أوباما" إنه خُلِقَ ليكون رئيساً. لكنه لم يكن يلقي بالاً لذلك؛ فهو يرى أن الأحداث والمصادفات تحكم حياتنا بصورة أكبر ممّا نظن، وأن قضاء الله أعظم كثيراً من أن نحاول تأويله وفقاً لتجاربنا الدنيويَّة. وأنه حريٌّ بنا أن نسعى للقيام بما نرتئيه صواباً، ونقبل الواقع ونتعامل معه بإحسان وامتنان.

وبحلول عام 2006، بدا ممكناً أن يشارك في سباق الانتخابات الرئاسية. كان السيناتور "هاري ريد" والسيناتور "تشاك سكومر" – قائد الأقليات في البرلمان- والسيناتور "ديك دوربن" ضمن زمرة كبيرة تؤمن بفرصة "أوباما" المثالية في الفوز. وظلت تتكرر على مسامعه نفس الرسالة مراراً: أمريكا الآن بحاجة ماسة إلى دماء جديدة. مجرد ترشحه كان بوابة عبور أمام الديمقراطيين لاقتناص فرص هائلة في خضم هذا المضمار.

كان كل شيء حوله يدفعه في الاتجاه نفسه، ذات مرة تحدث إليه "تيد كينيدي" – أسطورة السياسة في "واشنطن" – قائلاً: "إن القدرة على إلهام الناس أمر استثنائي". قد تظن أنك غير مستعد، لكنك لا تختار الوقت، بل هو الذي يختارك. القرار لك، إما أن تقتنص فرصتك التي ربما لن تتكرر، أو تتركها ترحل لتأسف عليها ما حييت.

فطن "أوباما" إلى أنه منذ اللحظة التي أدى فيها القسم ليكون رئيساً للولايات المتحدة، بدأ العالم ينظر إلى بلاده بعيون مختلفة. حتى الأطفال في "أمريكا"، على اختلاف ألوانهم وخلفياتهم باتوا يرون أنفسهم بعيون مختلفة أيضاً، حتماً ستعلو الآفاق، وتنفتح المغاليق أمام القدرات والإمكانات. وهو ما يستحق وحده الكدّ والعناء.

كان الأمر عزفاً رقيقاً على أوتار حلم يصول بداخله، وهو الفوز برئاسة أمريكا، أرض الحرية التي طالما حلم بها، تلك الأرض التي لا تحمل مستحيلاً فوقها، حيث كل شيء ممكن، وأي شيء جائز. لم يكُن الأمر وهماً أو سراباً، بل حقيقة سيراها رأي العين وتلمس شغاف قلبه ليروي حلمه الظمآن، وهنا لم يجد مفراً من خوض الرهان!

نعم، نستطيع!

كان "أوباما" بطبيعته خطيباً مفوَّهاً. وبالطبع ساعده هذا على الحدّ من الأخطاء التي يقع فيها مرشحو الرئاسة في خطبهم، ولكن إطنابه وإسهابه كان حاجزاً بينه وبين الجمهور، وهو ما جعل الإصغاء إليه عسيراً، حتى إن "ديفيد أكسيلرود"؛ أحد مستشاريه السياسيين، قال عنه ذات مرة إنه سيحصل على تقدير ممتاز إن خاض اختباراً تحريرياً، لكنه لن ينال أصوات الناخبين.

لطالما انتقد "أكسيلرود" طريقته في المناظرات. كان دائماً يقول له: "تكمن مشكلتك في أنك تأبى إلا أن تجيب عن الأسئلة، وليس هذا ما نرمي إليه، ما نبتغيه هو الإعلان عن القيم والأفكار التي تؤمن بها. استغل كل ما يُطرح على الطاولة لتتحدث عما تريد أنت الحديث عنه".

لم يستسلم "أوباما" لما ألمّ به من إحباط، عكف على تطوير نقاط ضعفه بينما الحملة الانتخابية تدور في فلكها من دون توقف. ومع احتشاد المؤيدين، كان عليه إجراء مقابلات مباشرة مع الكثير منهم وجهاً لوجه، والإنصات إليهم ولمشكلاتهم باهتمام. كانت قصصهم ومعاناتهم مصدر إلهام استوحى منها خطبه، وأعطاها صبغة واقعية جعلتها تخرج من صميم القلب لا تُقرأ من الورق، لم تعد كلماته مجرد مفردات عقلانية ومصطلحات مجردة، بل أحاديث صادقة تمسّ وجدان الأمريكيين. وقد كانت استجابة الجمهور رائعة لأنهم استشعروا كلماته التي تعكس واقعهم وحياتهم.

على رأس الدروس التي تعلمها "أوباما" أثناء العمل مع أنصاره في حملته الانتخابية، أن الانتخابات والديمقراطية وجهان لعملة واحدة، فهما عمل جماعي لا عزفاً منفرداً. وهو مبدأ يظهر في أبرز مقولاته: "عندما نصحونا ألا نحاول، جاء رد الأمريكيين على قلب رجل واحد: "نعم، نستطيع". وكانت هذه العبارة هي شعاره في سباق الرئاسة.

بطبيعة الحال، لم تكن الحملة الانتخابية رحلة سهلة. فقد واجه فريقه خسارة فادحة في "نيوهامشير"، لم ينظر "أوباما" إلى المشهد باعتباره نكوصاً إلى الوراء، بل تجلّت فيه سمات الأبطال الواثقين، فقد بدا في ذروة الأزمة في أتم حالات الهدوء ورباطة الجأش. وعندما سُئِل عن هذا، عزى "أوباما" هذه السمة إلى عدة عوامل، منها سماته المزاجية الطبيعية، وتنشئته، وكيف درب نفسه على رؤية الصورة الكاملة والتركيز على أهدافه بدلاً من الانشغال بالمتغيرات اليومية.

كانت جَدة "أوباما" الراحلة مصدر إلهام ثري له؛ فقد نشأت في فترة الكساد الكبير واضطرت للعمل في أحد المصارف لتعول أسرتها. كانت تنصحه قائلة: "أحياناً، ما عليك إلا أن تفعل المطلوب فقط". علَّمته قيمة البذل والعطاء، وألا يدخر جهداً في سبيل تحقيق أهدافه حتى وإن لم يكن يحب العمل. كما علَّمته أن يجمع بين الحماس والعقل، وألا ينجرف عندما تجري الأمور على ما يرام، وفي الوقت نفسه لا يستغرق في الإحباط عندما تسوء الأمور.

كان القس "أوتيس موس"، وهو خبير أيضاً في الحقوق المدنية، ممَّن قدموا لـ "أوباما" الدعم ومدوه باليقين في أوقات الريبة التي اعترته أثناء رحلته الشاقة. يقول "موس": "هؤلاء الذين كانوا جزءاً من حركة التغيير، مثل "مارتن لوثر كينج". "باراك" أنت مُلهم، ومثلك مسؤولون عن إتمام الرحلة. القرار في يديك، أن تُكمِل بناء ما بدأناه وتنجينا من صحراء العنصرية." لم يكُن حلم "أوباما" من منطلق الطموح فقط، لكنه كان حلقة في سلسلة تقدم القادة السود السابقين.

وبمجرد أن فاز "أوباما" بمقعد المرشح الديمقراطي، قرر أن يسافر للخارج في رحلة امتدت لتسعة أيام، أجرى أثناءها مقابلات مع مختلف قادة العالم. كان مدفوعاً برغبته في أن يبرهن للأمريكيين على قدرته على العمل ليس فقط على المستوى المحلي، لكن أيضاً على المستوى الدولي. ولكي يتسنى له فعل ذلك، كان عليه أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات والخبرة الميدانية.

المتمرِّد

فور فوزه في الانتخابات الأمريكية، ليصبح الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة، أدرك "أوباما" أن أولى مهامه تتجسد في اختيار بطانته؛ الحاشية التي ستعمل تحت لوائه: القادة والمنسقون والمحللون ومديرو الأزمات، كل من يعاونوه في قيادة دفَّة سفينته لتشق طريقها في انسيابية واتزان يعكسان وجاهة خياراته السياسية، فكل عضو سيضمه إلى طاقمه يعكس مهارة الربّان ويفصح عن حنكته السياسية ونواياه الدفينة.

وتأهباً للتصدي للأزمة الاقتصادية التي كانت تلوح في الأفق حينئذٍ، عقد العزم على الاستعانة بأهل الخبرة في فريقه الاقتصادي، فوقع اختياره على أولئك الذين سبق لهم إدارة الكوارث حتى وإن لم تخلُ صحائفهم من الذنوب، أو كانوا من ذوي الأيادي البيضاء.

وسرعان ما داهمت "أوباما" وفريقه أزمة طاحنة؛ كيف سيتسنى لهم إنقاذ الاقتصاد من الانهيار؟ وضع الفريق استراتيجية لضخ الحوافز المالية بتمويل حكومي. من منظور فردي، كان من الحكمة أن يقتصدوا في وقت الأزمة، ولكن إن أمسك الجميع خشية الإنفاق، فلن ينتعش اقتصاد عماده التمويل والاستهلاك والاستثمار. كان المشهد مضطرباً، اقتصاد معرض للركود في أمس الحاجة إلى قُبلة الحياة، تعوزه المحفِّزات المالية، أي ضخ أموال في شرايين الاقتصاد لتدب فيه الحياة من جديد، فيشعر المواطنون بالثقة مرة أخرى وتدور عجلات الإنفاق. وهكذا تجري سفينة الاقتصاد بانسيابية وتلقائية تشق عباب الأمواج بأمان. ولكن بقي سؤال: فيم وكيف سيتم إنفاق المال؟

اقترح القانون الأمريكي "للإنعاش وإعادة الاستثمار" تخصيص ما يقرب من 800 مليار دولار وتقسيمها إلى ثلاثة أنصبة متساوية: الأول لتأمين البطالة والمساعدات المباشرة، والثاني للتخفيضات الضريبية للطبقة المتوسطة وتشجيع المؤسسات التجارية على الاستثمار في أدوات جديدة، أمّا الجزء الثالث فكان من نصيب المبادرات الكبرى طويلة المدى التي ستوفر فرص عمل للمواطنين، إلى جانب تطوير الطرق ومحطات الطاقة الشمسية وطاقة الرياح، وكذلك الحوافز التي تستهدف إصلاح النظم التعليمية.

ولتمرير هذا القانون، كان على "أوباما" التعامل مع الكونجرس. وإذ كان ينبغي الحصول على 60 صوتاً لتمرير أيِّ قانون، فكان أيُّ عدد أقل من ذلك سيُتَّخذ ذريعة تفتح المجال على مصراعيه أمام المعارضة للمماطلة والانخراط في محادثات لن تنتهي لتضييع الوقت، ومن ثمَّ عرقلة الدعوة للتصويت. وبينما كانت الأغلبية للحزب الديمقراطي أثناء إدارة "أوباما"، عقد الجمهوريون العزم على عرقلة أيِّ مشروع قانون يطرحه. ولا عجب أنه في نهاية الأمر تم تمرير القانون دون صوت واحد من الحزب الجمهوري. كانت النيَّة المبيَّتة لدى الجمهوريين بالإحجام عن التعاون مع إدارة "أوباما" بمثابة صداع مزمن لم يسلم منه. وبات مشروعه -أو بالأحرى حلمه- مهدداً بالانهيار التام إذا ما صادفه أيُّ اهتزاز في دعم الديمقراطيين.

علم "أوباما" أن الثقة والدعم اللذين يمده بهما الشعب مِدادٌ لا غنى عنه لنجاح إدارته. فعندما ألقى وزير الخزانة "تيم غيثنر" خطابه الأول، كان خطاباً كارثياً. كان جيداً من الناحية المالية، لكنه لم يرتقِ مطلقاً إلى المستوى المرجو أو المرتقب. وهو ما استتبعه هبوط في سوق الأوراق المالية بنسبة 5% في يوم واحد.

ألقى "غيثنر" باللوم على نفسه، غير أن "أوباما" أدرك أنه المسؤول عن هذا الإخفاق، فهو لم يحسن إعداد "غيثنر". وهكذا تعلم من خطأه، وقاد فريقه نحو مزيد من الحزم والقبض على زمام الأمور، لزم منهجاً جديداً يقوم على توقع المشكلات قبل عرض الخطط على الملأ، والاهتمام كثيراً بانتقاء الكوادر التي ستعمل في المشروعات الكبرى، فضلاً عن الحرص الشديد في عرض الخطط، وليس فقط في وضعها.

حرص "أوباما" أيضاً على الاجتماع بكل وزير في حكومته لبحث خططه الوزارية. وكان يحثهم على توقع المشكلات المحتملة، وتحديد الأولويات، كما اعتاد زيارة الوزارات والتحدث إلى الموظفين، ليشكرهم بنفسه على الخدمات التي يؤدونها لوطنهم، ويشيد بأهمية عملهم.

كل شخص يتعامل مع مشكلات حياته من منطلق قيمه وأفكاره الخاصة، لكن إذا كنت رئيساً لدولة مثل أمريكا، فالأمر برمته مختلف. فمن أصعب الدروس التي تعلمها "أوباما" وأثرت في وجدانه أنه ما من مشكلة لها حل مثالي تماماً. وإلا، يستطيع أي فرد على قاعدة هرم المسؤولية أن يتعامل معها. لهذا، تعلم أن يواجه الاحتمالات، على سبيل المثال، هناك احتمال بنسبة 70% أن يكون الأمر كارثياً ما لم تقدم على حل المشكلة بطريقة ما، وهناك احتمال آخر بنسبة 55% أن يكمن الحل في تجربة أسلوب مبتكر.

أدرك "أوباما" بفطنته أن مطاردة الحل المثالي بنسبة 100% يشلّ حركتنا تماماً، بينما اتباع حدسك؛ أي أن تفسح المجال لتفضيلاتك وميولك يقودك لاتخاذ القرار. وهكذا توصل إلى أنه كان من الضروري أن يبتكر ديناميكية مرنة يتخلى فيها عن "الأنا" ويجمع الحقائق والمعلومات ويصغي إلى الخبراء. وهو ما يقوده في النهاية إلى اتخاذ قرارات صعبة بنفس مطمئنة ويستطيع النوم واثقاً بأنه ليس في الإمكان أفضل مما كان. بهذه الطريقة أيضاً كان يضمن شعور أعضاء فريقه بالمسؤولية عن قراراتهم، مما أدى إلى تنفيذها على خير وجه، بأقل قدر من التذمر.

معارك لم يسمع بها أحد!

في أول مشاركة لـ "أوباما" في قمة مجموعة الـ 20، جلس في مقعده ينصت إلى كل رئيس باهتمام. كان يعرف أنه المستجد الوحيد، وفطن إلى أن القادة الآخرين داخل القاعة يراقبون سلوكه. فقرر أن قليلاً من سحر التواضع

والتخلي عن العجرفة والخيلاء سيمكِّناه من العمل معهم بسهولة ويسر.

أما عن الجانب الأخطر في عمله، وهو الجانب العسكري، فقد كان "أوباما" باعتباره القائد الأعلى للجيش يملك قرار تحريك الجيش لأغراض الأمن القومي. لم يكن الأمر ممتعاً له على الإطلاق؛ فقد دخل حقل السياسة لمساعدة الناس، لا لقتلهم. لكنه جزءاً لا يتجزء من عمله. وكان عليه أن يصلح جوانب محددة فيما يتعلق بجهود مواجهة الإرهاب، لا أن يهدم كل شيء ويبدأ من جديد. لذلك كان في مقدمة المهام التي اضطلع بها إغلاق سجن "جيتمو" – السجن العسكري في خليج "جوانتانامو". كما عيَّن "جون برينان" نائباً لمستشار الأمن القومي، وقد كان حتماً الرجل المناسب في الموقع المناسب؛ إذ كان منوطاً به العمل على ضمان تنفيذ التغييرات المطلوبة في النظام.

أما على صعيد القطاع الصحي، فقد كانت أكبر مبادرة في حملة "أوباما" هي إصلاح منظومة الرعاية الصحية. خَلُص "أوباما" إلى أن السياسة وجوهرها أمور شديدة التعقيد. لهذا أخذ على عاتقه أمرين: الأول، شفافية عملية التشريع، حتى يتسنى للجميع الاطلاع عليها؛ والثاني، سهولة فهمها. أضف إلى ذلك أولوية أخرى، ألا وهي تشكيل أفضل فريق لقيادة منظومة الرعاية الصحية. ولهذا، عيَّن "كاثلين سيبليوس"- المفوضة السابقة لقطاع التأمين، و"جين لامبرو" – خبيرة الرعاية الطبية، و"نانسي آن دي بارل" – مسؤولة الرعاية الطبية في إدارة "كلينتون"، وقد كانت المبادرة مهمة للغاية لها بشكل شخصي بقدر ما كانت مهمة لـ "أوباما".

أيّاً كان المنصب الذي يتقلده المرء أو الوظيفة التي يشغلها فإن الأمر لا يخلو من المفاجآت. فحتى أفضل المنظمات، لا يسعها الاستعداد الكامل لكل شيء وأي شيء، هناك دائماً أمور لم تكن في الحسبان، بل تفوق التوقعات، تُخل بالموازين وتجبرنا على إعادة ترتيب الأوراق. وهنا تبرز أهمية القدرة على الارتجال وكياسة التصرف فنتكبد أقل قدر ممكن من الخسائر. كذلك هي الرئاسة، لا تأتيها المفاجآت فرادى، وإنما تلاحقنا كل يوم. فبينما كانت إدارة "أوباما" منشغلة بمواجهة الأزمة الاقتصادية، وخوض الحروب، وإصلاحات الرعاية الصحية، اجتاح العالم فيروس إنفلوانزا الخنازير (H1N1). وفي خضم تلك الأزمة، نصحه مسؤولون سابقون أن يدع الخبراء يديرون المعركة، بينما يقف هو صامداً ضمن صفوف المواجهة. وُفق إلى تعيين ثلاثة خبراء بالفعل، وتمكنوا من احتواء الفيروس بأقل الخسائر. أدرك "أوباما" لاحقاً أنه ربما تكون هناك بطولات ملحمية ولكن لا يلاحظها أحد.

العالم ووجهه المخيف

كان "أوباما" يرى أن العمل العسكري هو الملجأ والملاذ الأخير. كان يرى أن أمن وأمان أمريكا يكمنان في تعزيز علاقاتها وتحالفاتها الدولية. بالطبع كان من الضروري إدارة الحروب التي تورطوا فيها بالفعل، لكنه أراد أن يضع الدبلوماسية موضع الاختبار. لذلك كان كل تصريح له في السياسة الخارجية يؤكد على التعاون الدولي، ورغبة "أمريكا" في التعاون مع الشعوب الأخرى تعاوناً عماده الاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة.

أما عن طبيعة العلاقات الدولية من منظور "أوباما" فقد كانت له رؤيته الخاصة التي تجسدت فيما قاله لفريقه: "إن أردنا أن تدعمنا الدول الأخرى، فعلينا أن نظهر احترامنا لهم ولرؤيتهم، لا أن نرهبهم". حاول "أوباما" أن يظهر اهتمامه بتاريخ البلاد التي زارها وثقافتها؛ فحرص على زيارة المعالم السياحية لكل دولة زارها. فقد فطن إلى أن الاهتمام بالمعالم السياحية المحلية لديهم سيترك انطباعاً لدى رجل الشارع في هذه الدول أكثر من أيِّ اجتماع أو مؤتمر صحفي قد يشارك فيه. ذلك فضلاً عن أن هذه الزيارات ستتيح له فرصة التواصل مع المواطنين، حتى لا يقتصر تفاعله على المسؤولين الحكوميين والنخبة.

استقى "أوباما" استراتيجيته الدبلوماسية الفعالة من لقاءاته المفتوحة مع الشباب. كان تفاعله المباشر مع المواطنين – في حين يمثل هو رأس الدولة - خطوة فاعلة على طريق الديمقراطية. كما أن تلك اللقاءات منحت المُهمَّشين فرصة حقيقية ومنبراً تعلو عليه أصواتهم ليصغي إليها.

وفي ظل عالم تحركه المصالح، فتسعى كل أمة جاهدة لنيل أمانيها وتحقيق مصالحها، لم يخلُ سبيله من العثرات. فبينما تجد جميع القادة يصارعون من أجل الحفاظ على قوة ونفوذ دولهم على مستوى العالم، نادراً ما تجد قائداً دوافعه الأخلاقيات وحدها، وبخاصة هؤلاء الذين يتزعمون حكومات قمعية. وهكذا، باتت الحاجة إلى اتِّباع سياسة أكثر حزماً تقوم على الثواب والعقاب الرادع أمراً لا مناص منه.

كثيراً ما واجه "أوباما" ضغوطاً كبيرة عندما كان يرى بعض قادة الدول الأخرى يلجأون إلى العنف للاستبداد بشعوبهم. لم يملك تحت وطأة هذه الضغوط أن يقف مكتوف اليدين. وهنا تعلم درساً قاسياً أثناء ولايته، ألا وهو أن قراراته مرتبطة الآن باستراتيجيات وتكتيكات توظَّف في المقام الأول لخدمة بلاده وتحقيق مصالحها. ورغم أنه صاحب السلطة النافذة والنفوذ الأقوى على وجه الأرض، فقد كانت حريته في التصرف والتعبير محدودة أكثر من أيِّ مواطن عادي.

انتبه "أوباما" إلى أن كونه رئيساً يفرض عليه تغييراً كبيراً في توقعاته، وبخاصةٍ فيما يتعلق بالتوقيت. عليه أن يدرك أن الجهود التي يبذلها على أيِّ صعيد والحروب التي يخوضها على أيَّة جبهة لن تؤتي ثمارها فوراً، فما يقوم به ليس بالأمر السهل، بل هي مهام جسام وأمور جلل شديدة التعقيد والصعوبة. تعلَّم أن يقيّم التقدم الذي يحرزه بخطوات أكثر تمهلاً، وخلص إلى أن أهدافه قد تستغرق سنوات لترى النور، هذا إن رأته. وحينها ربما لا يقدرها المواطن العادي، ولا حتى يعترف بها مطلقاً.

دعنا نتناول مثالاً جلياً على هذا الأمر، ألا وهو تغيّر المناخ. عادة ما يتطلب التغيير التي قد تحدثه الحكومات بهذا الشأن تفعيل سياسات مرهقة وباهظة التكلفة اليوم، منعاً لوقوع كارثة محققة غداً. ولقد حدثت بالفعل تغيرات على مستويات عدة، تشمل المواطنين والمؤسسات، لكن كلها واجهت نفس المشكلة، ألا وهي أنه مهما كانت التقنية المتبعة متقدمة، فما زالت تعمل في ظل اقتصاد قائم على النفط والغاز والفحم.

كان هذا هو المناخ الذي يأمل "أوباما" في ظلِّه أن يمرر قانون الإنعاش الاقتصادي وإعادة الاستثمار. اقتطع 90 مليار دولار من الحوافز المتاحة لتمويل مبادرات الطاقة النظيفة في "أمريكا". ولكن بعض الاستثمارات لم يحالفها الحظ؛ إذ تأتي الرياح كثيراً بما لا تشتهي السفن! أخذت إحدى الشركات التي تعمل في مجال الطاقة الشمسية قرضاً بمبلغ 535 مليون دولار، لكنها أفلست في عام 2011. كان حدثاً مأساوياً وضع "أوباما" في مأزقٍ حقيقي، لكنه واصل مسيرته دون تخاذل أو وهن. أيقن أنه لا شيء يعمل كما نخطط له بشكل مثالي تماماً. وخلص إلى أن تنفيذ المهام على النحو الذي تمنّاه سيعرِّضه لنقد لاذع، وأن توخي الحذر والتعاطي مع الأمور بحرص وتجنب المجازفات ما هو إلا خيانة لآمال الناخبين الذين منحوه أصواتهم.

أزمات متلاحقة

أثناء الأزمات، أخذ "أوباما" على عاتقه الحفاظ على الروح المعنوية لفريقه. كان سخياً في الثناء متلطفاً في الانتقاد. وأثناء اجتماعاته، كان يحث الجميع على التعبير عن أفكارهم؛ حتى صغار الموظفين كان لهم نصيب من ذلك. كان يهتم كثيراً بأبسط الأمور التي تتعلق بالموظفين، لم يستثنِ منها شيئاً، كأن يجلب بنفسه كعكة عيد الميلاد لأحد موظفيه، أو يذهب إلى الجناح الغربي في البيت الأبيض ليتفقد أحوال الموظفين ويطمئن عليهم ويطمئنهم. وقد سمح له ذلك بتعلم الكثير. فقد انتبه أيضاً إلى أنه ينبغي الاهتمام بمشكلات المرأة والملونين في فريقه، فقد لاحظ أنه عندما تزداد ضغوط العمل وتبدأ النزاعات، كان الرجال يتصدرون المشهد بقوة وحزم بينما تنسحب النساء في استسلام وصمت. اجتمع "أوباما" ببعض القيادات النسائية في فريقه، وبذل قصارى جهده لينصت إليهن ويفهم أوضاعهن.

أمّا "أوباما" نفسه وقت الأزمات وتحت وطأة ضغوط العمل فلم يكن يهتز مطلقاً. وكما عُرف أثناء حملته الانتخابية كان طوداً متيناً لا تزلزله النزاعات والعقبات ولا تؤثر في صلابته. كانت أزمته الحقيقية أنه إذا ما شعر بأنه عديم الفائدة يهدر الوقت والفرص بلا طائل. ولكنه حتى في أحلك أيام رئاسته، لم يخالجه هذا الشعور قط. كان بإمكانه

أن يفعل الكثير من دون الغرق في جلبة الرئاسة وضوضائها، لولا أنه أحب العمل عن كثب والآطلاع على لطائف الأمور. التزم بجدول أعمال يومي صحي، يحفظ توازن الحياة والعمل فلا ترجح كفة على نظيرتها. خصَّص وقتاً يقضيه يومياً برفقة عائلته، ووقتاً للتريُّض كل صباح.

ذات يوم نُشِرَ مقال بعنوان "الجنرال الهارب" يسخر فيها قائد القوات الأمريكية في "أفغانستان"، الجنرال "ستانلي مكريستال"، من نائب الرئيس "جو بايدن"، وأحد الدبلوماسيين، وهو "ريتشارد هولبروك". في البداية، فكر "أوباما" في تسريح "مكريستال" مع توبيخ شديد اللهجة. وبعد محادثات مغلقة مع كبار أعضاء فريقه، توصلوا إلى أن هذا الإجراء سيظهرهم بصورة مشينة في الإعلام. فضلاً عن أن الجميع في البيت الأبيض لم يفُتهم يوماً أن يتفوهوا بما كان ينبغي أن يمسكوا عنه.

غير أن "أوباما" صمم أن "مكريستال" حالة مختلفة. لأنه ينتمي إلى القوات المسلحة الأمريكية، والعسكرية تعني الانضباط والالتزام بقواعد السلوك. وأي فرد في القوات المسلحة يتحدث بسوء عن قادته لا يفلت من العقاب، فما بالك بجنرال تلمع على كتفيه أربع نجوم مثل "مكريستال". علاوة على ذلك، كان ثمة عُرف قائم منذ عهد الرئيس "بوش"، وهو أنه عندما يتعلق الأمر بالحرب ويزجّ العسكريون بأنفسهم سعياً لتصدر المشهد، ينبغي على رجال السياسة أن يتنحوا جانباً دون أن يفسحوا لهم المجال لينالوا مبتغاهم، فهو ما كان يمثل تهديداً لمبدأ الديمقراطية، ولم يكن "أوباما" ليخاطر به مطلقاً. لم يمضِ وقت طويل حتى اعتذر الجنرال "مكريستال" واستقال من منصبه في هدوء.

سياسة المشي على الحبل

كان "أوباما" يتساءل أحياناً عن تلك التوليفة المتفردة من الفضائل التي تنصهر فتشكل لنا ذلك القائد العظيم الذي بمقدوره أن يغيِّر مجرى التاريخ؛ ما هي تلك المآثر الحميدة والمناقب الفريدة التي تجعل منه الزعيم الراعي والحاكم الآمر، أمّا إذا كان هناك دور لأحلامه وطموحاته أو مخاوفه وأحزانه، فلم تخلُ طفولة "أوباما" من الصدمات التي رجَّته رجّاً، وآماله التي حلقت به في سماء الأرض الموعودة! لم يرَ "أوباما" أن أحلامه ومخاوفه تقل تأثيراً عن أحدث الطفرات التقنية أو الاتجاهات الاقتصادية. بيد أن حيرته لم تنتهِ، وظل يتساءل هل من يعتلون قمة هرم السلطة هم مجرد تعبير يفصح عن طبيعة الزمن الحالي ومزاجه، أم أنهم يملكون مفاتيح المستقبل ومقاليده؟

وعلى صعيد الشرق الأوسط الملتهب، كان "أوباما" بوصفه رئيساً لأمريكا مسؤولاً عن تسهيل عملية المفاوضات بين "نتنياهو" و"محمود عباس"؛ قائديّ الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي دائم الغليان. وقد اعتمد "أوباما" على مجموعة من الدبلوماسيين المحنكين، مثل "هيلاري كلينتون"، و"جورج ميتشل"، لكن للأسف، جاءت النتائج التي أسفرت عنها الاجتماعات هزيلة للغاية، بل كانت غير ملزمة لأيٍّ من الطرفين، فلم تؤتِ ثمراً، وخرج الجميع من مولد المفاوضات بلا حمص!

عندما كان يتعلق الأمر بصراعات معقدة مثل تلك، كثيراً ما كانت تمارَس الضغوط الداخلية والخارجية على "أوباما" فتدفعه نحو الانحياز إلى أحد جانبي الصراع، واستخدام القوة الأمريكية للتحكم في مجريات الأمور. وعن هذا الموقف الأمريكي قال: "إن الولايات المتحدة سفينة عابرة للمحيطات، وليست زورقاً صغيراً. إن أردنا أن نغير نهجنا، فنحن بحاجة إلى استراتيجية تُبنى بمرور الوقت".

ومع سرعة تصاعد الأحداث في الشرق الأوسط، حيث اندلعت الاحتجاجات الشعبية في مصر ضد نظام "حسني مبارك" ومطالبة الشعب له بالتنحي، فما كان منه إلا أن شرع في تضييق الخناق على المواطنين بعد أن زجَّ بالجيش والشرطة لقمعهم. كان "مبارك" مصمماً على عدم التنحي مقاوماً الضغوط التي تطالبه بذلك غير آبهٍ بها. في تلك اللحظة، كان على "أوباما" أن يتخذ موقفاً. ربما لم يكن بوسعه منع الصين وروسيا من التدخل، ولكن نظام

"مبارك" كان قد لاقى الكثير من الدعم من الإدارة الأمريكية، وتلقى مليارات الدولارات والأسلحة وتدريب الجيش وقتما كانت تعتبره أمريكا حليفاً، لكنه الآن يمطر المتظاهرين السلميين بوابل من النيران والعنف، فلم يترك لـ "أوباما" خياراً سوى مطالبته بالرحيل. لم يكن ليفعل غير ذلك، فأيُّ موقف مغاير ما كان ليجرّ إليه وإلى أمريكا سوى التشكيك في مصداقية دعوتهما إلى الحرية والإنصاف.

كان أقصى تدخل عسكري أمريكي قامت به إدارة "أوباما" في الشرق الأوسط هو مداهمة مجمع "أبوت أباد" وتصفية "أسامة بن لادن". في الليلة التي اتخذ فيها "أوباما" قرار الهجوم، كان مدركاً للمخاطر التي تنطوي عليها المغامرة. ورغم ثقته بفريق القوات الخاصة الذي سيضطلع بالمهمة، ودراسته المتأنية لاحتمالات النجاح، كان يعلم أن النتائج غير مضمونة. بيد أن ثقته لم تهتز وعزمه لم يتزعزع وقام بتنفيذ الضربة.

كانت الضربة قاصمة، أخذت أمريكا بثأرها من "بن لادن" رغم عدم خلو الأمر من عثرات. وتم القضاء على الإرهابي الذي أقسمت "أمريكا" أن تنفذ فيه حكم العدالة منذ عهد "بوش". كان "أوباما" يعلم يقيناً أنها لن تكون نهاية المشكلات التي تواجه أمريكا، إلا أنه كان يأمل أن يساعد هذا الحدث الجلل في توحيد صفوف الأمريكيين لمواجهة العدو الحقيقي، هؤلاء القتلة الدمويين، الذين لا يمثلون دولة بعينها أو ديناً محدداً أو قيمة حقيقية.

كانت هذه الضربة هي الإنجاز العسكري الوحيد الذي حققته إدارة "أوباما" واجتمعت لدعمه كل أطياف الدولة، ديمقراطيون وجمهوريون، بيد أنه لم يسعه الاحتفاء بنصره بالحماس المنتظر؛ إذ ثمة تساؤل كان يدور بخلده: ألم تكن هذه الوحدة ممكنة إلا من أجل قتل إرهابي؟ لماذا لا نتحدّ ونتضامن بكل هذا الإصرار والعزم لبذل جهود الحدِّ من الفقر ومكافحة التلوث وضمان حياة كريمة لكل أسرة؟ قد يرى البعض هذه الأفكار محض خيال مثالي، لكن "أوباما" كان يراه واجباً وتكليفاً يحمله كل رئيس مخلص لوطنه، وأمانة في عنق كل ذي سلطان يحكم الأرض الموعودة!

المؤلف :

باراك أوباما

الرئيس الرابع والأربعون للولايات المتحدة الأمريكية. ولد في "هونولولو" بـ"هاواي". عمل في بداية حياته منسقاً مجتمعياً في إحدى منظمات المجتمع المدني في "شيكاغو"، ثم محامياً للحقوق المدنية، ثم ممثلاً للحي الثالث عشر في "إلينوي"، ثم نائباً في مجلس النواب الأمريكي. حصل على جائزة "نوبل" للسلام في عام 2009. له أربعة كتب منشورة: "أحلام أبي"، و"جرأة الأمل"، و"بك أتغنى"، و"أرض موعودة". "باراك أوباما" زوج لـ "ميشيل أوباما" وأب لبنتين هما: "ماليا"، و"ساشا".

الكتـــاب

Title:	A Promised Land
Authors:	Barak H. Obama
Publisher:	Crown - November 17, 2020
Pages:	768
ISBN:	978-1524763169